ماحمل "محمد مندور" على نقد مذهبه، يقول: "إن مذهب خلف الله ومن يرى رأيه سينتهي بنا إلى قتل الأدب. الأدب لا يمكن أن نجدّده ونوجّهه ونحييه إلاّ بعناصره الأدبية البحتة، وهذا مايجب علينا جميعاً أن نجاهد في سبيله، إنّه لَوَهْمٌ بعيدٌ أن نظنّ في علم النفس، أو في علم الجمال، أو في غيرهما من العلوم كبير فائدة للأدب، يجب علينا أن نعرف كل تلك الأبحاث، ولكن على أن تحتفظ بتلك المعرفة لأنفسنا ولا نرجّ بها في الأدب ، وإلا كنا مفلسين نوهم الغير ببريقٍ كاذبٍ"[١١٣]

وقد يكون في نقد "مندور" شيءٌ من الصّواب، لأنّ حصر الدراسة النقدية الأدبية في شخصية الأديب على حساب العمل الأدبي، وباسم علم النفس، سيؤدّي إلى تغريب الأدب عن مجاله، ولكن ليس شرطاً أن يحتفظ الناقد بالمعرفة لنفسه، خصوصاً إذا كانت الظاهرة الأدبيّة تتطلّب توظيف مختلف ضروب المعرفة بطريقةٍ لبقةٍ بعيدةٍ، بطبيعة الحال، عن الشّطط والغلّو.

ومهما يكن من أمرٍ، فإنّ المُعوّل عليه عند "مندور"، هو فنّ دراسة النّصوص الأدبيّة، والتّمييز بين الأساليب المختلفة، والاعتماد على الذّوق الأدبي.[١١٤] وهذا مافات "خلف الله" في رأي أحد الباحثين، يقول في مقال له:

"ولقد فات الأستاذ خلف الله، وهذا في رأيي، وهو يدعو إلى مذهبه، أن يضمّ إلى دراسته النفسية في نقد الأدب، حتى يكتب لها البقاء، مادعا إليه الدكتور مندور، أولاً، لتكتمل قواعد النّقد، فلا تكون هناك ثغرةٌ في هذه الدراسة بل يكون التوفيق بين هذه الآثار جميعاً، فيستكمل القانون بنوده، ولا يكون ثمّةٍ، رأيٌ ورأيٌ، وخلافٌ قاصدٌ، وآخر ذو مصلحةٍ في الدّفاع.."[١١٥]

وليست المسألة، في نظرنا، مسألة توفيق بين المناهج النّقدية أو الآثار الأدبية، لأن قواعد النقد لا تُفرض على النصّ الأدبيّ من الخارج، بل يجب أن تراعي طبيعته ووظيفته لتضمن، على الأقل، انسجامها معه، وحتى لا يغدو التطبيق، فوق ذلك مسرفاً معتسفاً.

---

[١١٣] مندور، محمد، في الميزان الجديد، ص ١٧٠-١٧١.

[١١٤] مندور، محمد، في الميزان الجديد، ص ١٦٢.

[١١٥] زيادة، أبو طالب، مجلة الثقافة العربية، تموز ١٩٧٥، ١٩٧٥م العدد السابع، ليبيا عن مقال بعنوان: "الأستاذ محمد خلف الله، في من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده، ص ٥٧.